المستقبل وأسرار الوجود

للأستاذ عبد الجليل السيد حسن

المستقبل هو أمل من لا أمل له، وعزاء من لا عزاء له ؛ هو رجاء اليائسين ، ورخاء البائسين ، واللقمة التي يعيش عليها الفاشلون والمهزومون . هو الحبل الذي يتشبث به الغرق في بحار الحياة ويرونه سببا للنجاة بينما هم في اللجة يغوصون ، وإلى الهلاك يسرعون ، فكل من لم ينل من الحياة مراده ولا رغائبه ، واحتاطه اليأس وكفنه بالحزن والألم ليشيعه إلى القبر ، كان شريان الحياة الذي ينبض فيه ويمزق له أكفانه : هو المستقبل . فيندفع إلى الحياة ليعيش على الأمل والتعلات ، وينتظر استعادة ما فات ، واستحضار ما ستدبر . فالمستقبل هو خيط الحياة الذي بانقطاعه تنقطع الحياة ؛ فلو أن هذا الذي فاته ما يريد ويأمل ، وهذا الذي صدمته الحياة في نفسه وماله وولده ، لو أن هذا أو ذاك : تاه عنهما وجود المستقبل وغفلا عنه ليخم كلاهما نفسه ، وقضى على حياته بيديه ، ودافع بنفسه إلى القبر يحفره . ولكنه يرى يتعلل بالمستقبل ، يحقق له أمله الضائع ، ويشفي له مرضه المستعصي ، ويعوضه عن ماله الذي فقد وولده الذي احتسب . ويتضح لك هذا إذا صورت لنفسك ما ستكون عليه حالة هذا الذي فقد الأمل في المستقبل لأن الأسباب قد تقطعت به ، لاشك أنك ستراه بمنظارك أول الأمر حائرا يبحث متلهفا عن بصيص ينظر منه سببا وإن تفه يرجوه ، وفرجة وإن ضيقة يطل منها على المستقبل ، فإذا لم يقع على بغيته ، فلا إخالك إلا ملقيا بمنظارك لتجري نحوه لتوقفه عن قتل نفسه

المستقبل هو الوجود كله ، والزمان كله . وليس هناك من شيء غير المستقبل . أليس الوجود امتدادا لا يعرف منتهاه ولا أوله ، وما هو هذا الامتداد ؟ إنه لا يخرج عن المستقبل فليس هناك شيء اسمه الماضي ، ولاشيء اسمه الحاضر ، بل هناك شيء واحد اسمه المستقبل ، المستقبل فقط . وإذن ، فما هو الوجود . ؟ أليس إلا مستقبلا قد نسج ، ومستقبلا ينسج ، ومستقبلا ينتظر النسج ؟ أما المستقبل الذي نسج فهو ما نسميه الماضي ، والمستقبل الذي ينسج فهو ما نسميه الحاضر . فالأمر لا يعدو قسمة لا حقيقة لها لهذا التيار السارى ، تيار الوجود الذي يتركز في المستقبل . فتيار الزمان هو المستقبل وهو النهر الذي يسبح فيه الوجود والكائنات . فالنقطة التي تسبح فيها هذه اللحظة ، تسميها الحاضر ، والنقطة التي تمدتها تسميها الماضي ، والنقطة التي تنتظرها تسميها المستقبل. ويا لحمق هذه الكائنات التي تتناسى أن النقطة التي تسميها الماضي هي نفسها التي كانت تسميها المستقبل قبل أن تصل إليها ، فليس الأمر سوى خداع أسماء ، وكم لخداع الأسماء من ضحايا !

بين الماضي والمستقبل :

لتنظر معي رعاك الله إلى هذا الوجود ، وتأمل فيه : متى وجد . ؟ ... وأين كان قبل أن يوجد ؟ ... خذ أي شيء وتأمله ، وقف بالله عليك قبل أن تلتهم هذا العنقود من العنب ، وفكر « من أين جيء به ؟ » . . « من كرمته » . . « حسنا ، ومتى جيء به ؟ » .. « حسنا ، وأين كان قبل هذا الموسم ؟ » أين . . أين .. في العدم ؟ » ...

ولكن يا صاحبي كيف يأتي شيء من لا شيء ؟ إنه كان لا شك في ضمير الغيب ، أي قبل هذا الموسم بشهور مثلا : كان في المستقبل . ولكن . : هل كان وجوده مشخصا حقيقيا في هذا الغيب ؟

مثل هذه المشكلة حلها « أرسطو » بمفتاحه السحري : مفتاح « القوة والفعل » أو « الإمكان والواقع » فالشيء قبل أن يكون ، لم يكن معدوما بل كان موجودا بالقوة ، أي كان وجوده ممكنا وليس واقعا متحققا ظاهرا مشخصا ، فأي شيء هو بالقوة قبل أن يوجد ويخرج من القوة إلى الفعل بتأثير مؤثر ، فمثلا : البذرة الآن بذرة بالفعل وشجرة بالقوة ، لأنها سوف تكون شجرة . والطفل الآن طفل بالفعل وفي الواقع ولكنه سيكون رجلا في المستقبل ، فهو رجل بالقوة

وقد قلنا إن الوجود هو مستقبل قد نسج وهو الماضي ، ومستقبل ينسج وهو الحاضر ، ومستقبل سينسج وهو الذي

عرف وحده بالمستقبل ، فكأن المستقبل هو الوجود بالقوة والماضي هو الوجود بالفعل . فالفرق بين الماضي والمستقبل : هو الفرق بين الإمكان والواقع . وليس الفرق بين الإمكان والواقع واسع الشقة مهول المسافة ، بل لا يبدو ذلك إلا لذوى النظر الضيق ، أما أصحاب النظر السليم فإنهم لا يرون كبير فرق بين الإمكان والفعل ، لأن لهم من قوة بصرهم ما يريهم المستقبل حاضرا ، والإمكان واقعا

° ° °

إن الزمان عبارة عن الحركة ، أو أن الحركة هي جوهر الزمان ، فمثلا : تصور أن الأرض ثابتة ، وأن الشمس طالعة أبدا ، وأنك واقف على الأرض ثابت لا تريم . . هل تشعر بشيء ؟ لا يمكن أن تشعر بشيء مطلقا ، إذا لم يكن هناك حركة ولو أقلها تقرن نفسك بها ، وتشعر بوجودك بالنسبة إليها ، فأنت إذا كنت ترى صخرة أو شجرة مثلا ، ولم يكن في طوقك الحركة حتى تبلغها ، ولا في طوقها الحركة حتى تبلغك ؛ فلن تشعر بوجودها ، وقد لا تشعر بوجودك أيضا . أما الذي يجعلك تشعر بوجودك ووجودها فهو الحركة ، فالشجرة مثلا بعيدة الآن ، وهأنذا تقترب منها ، فأنت تشعر بوجودك ووجود الكون بناء على التغير أو النقلة ، فشيء غير موجود الآن يجعله التغير والانتقال موجودا . فالشيء الذي يشعر الإنسان بذاته ووجوده هو المستقبل ؛ لأن النقلة والتغير تصير إليه ، ولو لم يكن هناك مستقبل لما كان هناك وجود ولا زمان ولا شعور للانسان بذاته وبالكون . والنزوع إلى تحقيق ما هو غير محقق الآن ، هو أدل شيء على شعور الإنسان بالوجود وبذاته ، فالإرادة والشوق والأمل ، هي علائم الوجود وشواهده التي لا تكذب ، فيها يشعر الإنسان بأنه موجود حقا ولا يخالجه أدنى ريبة في وجود ذاته . وحينما تتعلق القدرة بالإرادة ، ويستطيع الإنسان تحقيق رغبته في العالم الخارجي ، فحينئذ يتأكد له وجوده ذاته ووجود العالم الخارجي

والمستقبل هو الذي يمنح الوجود الحياة ويبعد عنه الثبات الذي هو الموت ، وكسبه التجدد والتغير ، فليس شيء في الوجود ثابتا مطلقا . فلو فرضنا أن هناك موجودا جامدا أو حيا ، وليكن هذا الشيء « ا » فإن « م » الآن غير « ا » بعد دقيقة مثلا ؛ لأنها ستكون « ا » زائدا دقيقة » ولاشك أن « ا » فقط لا تساوى « ا زائد دقيقة » . وهكذا ، فإن كل شيء في الوجود في تغير أو حركة نتيجة لإضافة المستقبل إليه . فالمستقبل هو الذي يجعل الوجود حيا . ولولاه لما كان وجود ولا حياة . وهنا نرى أننا قد وصلنا إلى شيء جديد هو أن كل ما في الوجود لا يمكن فهمه إلا باندماج الزمان فيه واندماجه في الزمان — وحينما نقول الزمان فإنما نعني الصورة ذات الأوجه الثلاثة التي يبدو فيها المستقبل (من مستقبل « ماض » ومستقبل « حاضر » ومستقبل « مستقبل ») — فكأن هناك حدا لا تفهم الوجودات إلا بنسبتها إليه وقياسها عليه وهو الزمان أو المستقبل حقيقة . وهذا وصول إلى ما يشبه الحد الرابع الذي تقول به النسبية (١) ولكن من طريق آخر غير طريق النسبية ، بل من طريق وجودى مستقبلى تحليلي ، لا يعتمد إلا على تحليل الوجود ومحاولة فهم العناصر التي تكونه ، وليس استخراجا لهذا الحد من قوانين الحركة الحديثة التي تقول باستحالة استخراج الحركة المطلقة للتحرك ، وبناء عليه باستحالة التواقت المطلق والزمن المطلق ، وتقرر أن الزمن نسبي والتواقت نسبي بناء عليه بالنسبة للتحرك ، وهي تبني نتائجها وتجرى تجاربها على الحركة وقوانينها . أما نحن ، فإنا ندمج الزمان بالمكان بناء على الوجود المستقبلي والشعور بسريانه ، فالشعور بسريان الاندماج أصل ، والقول بالحركة فرع

ونقول إن هناك صورتين من الزمان : الزمان المفهوم من الحركة ، وهو « الزمان الخارجي » الذي نفهم الأشياء الخارجية به ؛ والزمان الذي نشعر به في أعماق وعينا ، وهو « الزمان الحقيقي » وبمقدار شعورنا بالزمان يكون وعينا ، فكلما كان وعينا قويا كان شعورنا بالزمان قويا كذلك ؛ فهناك تناسب طردى بين الوعي وبالتالي نصيبنا من الوجود ، وبين الشعور بالزمن . وقد قلنا إن الذي يجعل الزمن زمنا هو « المستقبل » بل إن المستقبل هو الذي يميز بين هذين النوعين

(١) سوف نعرض لنظرية النسبية في فرصة قريبة